صراع الهويّة في إفريقيا... التأرجح بين القبيلة والدولة

د. آدم بمبا

أكاديمية الدراسات الإسلامية، جامعة مالايا، ماليزيا

مدخل: الهويَّة بوصفها تشكُّلا اجتماعيّاً:

إذا كانـــت الهويَّةُ تمثِّلُ مركَّباً معقَّداً لشـــخصيَّة الإنســـان؛ فإنَّ هذا المركَّب يتمُّ تشـــكُّلُه وتنميته عبر تضافُر مكوِّناتٍ متعدِّدةٍ في المحيط الاجتماعيِّ الذي ينشأ فيه الفرد.

وقد عرَّف الباحـــثُ دو (Deaux) الهويَّة تعريفاً مختصراً بأنَّها: «الأســـلوب الذي به نعرفُ أنفُسَـــنا بدلالة عضويَّتنا في جماعةٍ معيَّنة»[١].

وعرَّفها تاجْفيل بأنَّها: «جزءٌ من مفهوم الفرد عن ذاتـــه الذي يتغذَّى من إدراكه؛ كونَهُ عضواً في جماعة اجتماعيَّة أو جماعات، وبما تمنحُهُ تلك العضويَّةُ من اعتباراتٍ قِيَميَّة ووجدانيَّة منسوبة لها»[٢].

ويرجـــع التَّطوُّر فـــي أبحاث الهويَّة إلـــى العالِم الاجتماعيِّ «جيمْس مارســـيا» الذي صنَّف الهويَّة إلى أربعة مستوياتٍ، هي:

١ - الهوية المشتَّتة.

٢ - الهويَّة المغلّفة.

٣ - الهويَّة المؤجَّلة.

٤ - الهوية المُنْجَزة.

والفـــرد في تلـــك المســـتويات يترقَّى نفســـيّاً واجتماعيّاً مـــن هويَّةٍ أقلَّ نُموّاً إلى هويَّةٍ أكثر تقدُّماً، وهذا التَّطوُّر في هويَّة الفرد ضروريٌّ، وبتعبير الباحث هيكْسْ؛ فإنَّه بدون هويَّةٍ «تستحيل الحياةُ على البشر سيكولوجيّاً واجتماعيّاً»[٣].

وتُعدُّ فترة المراهقة في حياة الإنســـان المرحلة الحاســـمة والخصبة لهذا التَّطوُّر والتَّشكُّل في هويَّة الفرد، فالإنســـان يولد بنصيب من خصائص هويَّته، ثم تنمو وتتطوَّرُ عبر التَّاريخ الشَّخصيِّ طبقاً للخبرات الاجتماعيَّة التي يتعرَّض لها، وطبقاً لتحديدات اللُّغة والعادات والمعايير والقيَم التي يتعلَّمها من المنظومة الاجتماعيَّة المحيطة به.

وبما أنَّ الهويَّة الفرديَّة لا يتمُّ تحديدها بمعزلٍ عن الجماعة؛ فإنَّ ثمّة مفاهيم للهويَّة وعلاقتها بالجماعة موجودة، مثل الهويّة الجماعيَّة، والهويَّة الاجتماعيَّة.

أ - الهويَّة الجماعيَّة (Collective Identity):

هنـــاك هويَّة جماعيَّة بإزاء الهويَّة الفرديَّة، تنطلق عن عضويَّة الفرد داخل الجماعة، وتُعرف بأنَّها: «الشُّعور المشترك لدى جماعة بأنَّها تتقاسَمُ مصلحةً مشتركةً، ومصيراً موحَّداً»، ويشمل ذلك الجماعة داخل الدَّولة المشـــتركة، أو الدِّين، أو اللُّغـــة، أو الإثنيَّة. وقد يعلو هذا الشُّعور لدى الأفراد داخل المجموعة إلى درجة إمكانيَّـــة تضحية الأفراد بأرواحهـــم من أجل حماية أفرادٍ آخرين، أو مصالح المجموعة[٤].

ب - الهويَّة الاجتماعيَّـــة (Social Identity):

تُعرف الهويَّـــة الاجتماعيَّة بأنَّها: «جـــزءٌ من مفهوم الذَّات لدى الفرد، يُشـــتق من معرفتـــه بعضويَّته في الجماعـــة، واكتســـابه المعاني القيَميَّـــة والوجدانيَّة المتعلِّقة بهذه العضويَّة»[٥]، ويحصر الباحثون مجالات الهويَّـــة الاجتماعيَّـــة فـــي أربعة، هـــي: (الصَّداقة، وإدراك الدَّور الجنســـي، والعلاقة مع الجنس الآخر، والاستمتاع بوقت الفراغ).

كذلك؛ من المفاهيـــم المهمَّة المرتبطة بالهويَّة: مفهوم المجموعة الإثنيَّة (Ethnic Group)، ويُراد به: «مجموعةٌ من الأفراد الذين يتقاسَـــمُون الاعتقاد في الانتماء إلى واحدٍ أو أكثر من الخصائص الآتية:

---

(١) Deaux, K. (2001). Social Identity . In: J. Worell, Encyclopedia of gender and women .Sandiego: Academic Press, 431

(٢) Tajfel, H. (1978). Differentiation Between social Group Relations, Academic Press, .London, 63

(٣) Hicks, T. (2001). “Another Look at Identity-Based Conflict: The Roots of Conflict in the Psychology of Consciousness”, Negotiation .Journal,January, 36

(٤) Sheldon, Stryker, (ed). (2000). Self, Identity, and Social Movements, University of .Minnesota Press, 69

(٥) زايد، حمد: سيكولوجية العلاقات بين الجماعات، (الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٦م)، ص ١٩.

الجنس، والدِّين، واللُّغة، والثَّقافة، والأرض»[١].

وأمَّا القَبَليَّـــة (ethnicity): فهـــي ولاء الفرد لمجموعتـــه الإثنيَّة بوصف ذلك رمـــزاً لهويَّته، ولها مستوياتٌ متدرِّجة قد تصلُ إلى التَّعصُّب المفرط.

والتَّعصُّـــب، كما يعرِّفه الباحـــث طه، هو: «اتِّجاه نفسيٌّ لدى الفرد، يجعله يُدرك فرداً معيَّناً، أو جماعةً معيَّنـــةً، أو موضوعاً معيَّنـــاً، إدراكاً إيجابيّاً محبّاً، أو سلبيّاً كارهاً، دون أن يكون لذلك ما يُبرِّرُهُ من المنطق أو الشَّواهد التَّجريبيَّة»[٢]، أو هو: «اتِّجاهٌ سلبيٌّ يتضمَّنُ مجموعةً من الأفكار والمعتقدات الثَّابتة حول الأشياء أو الأشـــخاص الآخرين؛ بحيث يُصـــدر أحكاماً ثابتةً ضدَّهم في جميع الظُّروف، ويتحدَّد الاتِّجاهُ السَّـــلبيُّ في الاتِّجاهات: الشَّخصيَّة، والدِّينيَّة والقوميَّة...»[٣].

إذن من أشـــكال التَّعصُّب: التَّعصُّـــب الدِّيني أو المذهبي، والتَّعصب الشَّـــخصي، والتَّعصب القومي. وهـــو يؤدِّي – حتماً – إلـــى تصنيف الفرد العالم إلى صِنْفَيـــن: «أنا / نحن»؛ بمقابل «هم / الآخر»، ويكون «الأنا» دائماً هو المثالـــيُّ، ويؤدِّي ذلك إلى ما يُعرف على مســـتوى المجموعة بالصِّـــراع الإثنيِّ، وهو في تعريف بـــراوْن: «النِّزاع حول القضايا السِّياســـيَّة أو الاقتصاديَّة أو الاجتماعيَّة أو الثَّقافيَّة؛ بين مجموعَتَين اثنيَّتَين أو أكثر»[٤].

تلك بعض المفهومات – على سبيل الاستعراض العاجـــل – عن الهويَّة وتشـــكُّلها، وتأثير المجتمع في تطوُّرها، وعلاقتها بالتَّوافق والوئام داخل المجتمع أو علاقتها بالصِّراع.

أمثلة لصراع الهويات:

تُعدُّ متغيِّرات التَّمايز: (العرقي، والإثنيِّ، والدِّيني) من أهمِّ المتغيِّرات المســـؤولة عن نشـــوب الحروب الأهليَّة بإفريقيا، وإنْ كان الباحثون يختلفون حول كوْن هذه المتغيِّرات أسباباً مباشـــرةً، أو ثانويَّة، أو وقوداً مغذِّياً مؤجِّجاً للصِّراعات.

ويُعرِّف الباحـــث هيكْسْ الصِّراعات القائمة على الهويَّـــة بأنَّها: «النِّزاعات الاجتماعيَّة (على مســـتوى الأفراد أو الجماعات)، القائمة على التَّمايزات الإثنيَّة، أو الثَّقافيَّة، أو الدِّينيَّة، أو الهويَّة الوطنيَّة»[٥].

ومن خصائص الصِّراعـــات القائمة على الهويَّة شـــدَّة حماس المتنازعين، وطولُ أمَدِها؛ ذلك أنَّ كلَّ طرفٍ يتمسَّـــك بشـــدَّة برؤيته، ويرى التَّخلِّي عن أيِّ موقفٍ يمسّ مسّاً مباشراً بركائز وجوده.

من القواسم المشـــتركة أيضاً بين هذا النَّوع من الصِّراعات: أنَّها تُجتَلَب – حتْماً – في كلِّ صراع، في مرحلة من مراحله، وإنْ كان السَّـــبب الرَّئيس للصِّراع سياســـيّاً أو تنافســـاً محضاً على الموارد الطَّبيعيَّة، وسبب هذا الاجتلاب: استقطاب المناصرين، وعندما تُقحَمُ إحدى هـــذه المتغيِّرات: (الدِّين، اللُّغة، الإثنيَّة) فـــي النِّزاع؛ فإنَّها قد تتضخَّمُ وتأخذ موضع الصَّدارة على السَّبب الرَّئيس، وتطغى عليه[٦].

بهـــذا الصَّدد؛ فـــإنَّ من الحـــروب الأهليَّة التي يمكـــن وصفُها بحروبٍ إثنيَّة – إلـــى أبعد الحدود – ممَّا عرفته الشُّعوب الإفريقيَّة في تاريخها الحديث:

(١) Afolabi, M.A. (2006) "Inter Group Relations in the 20th Century Nigeria :A Historical Survey" in: O. Akinwumi et al (Eds.) Inter-Group Relations, In Nigeria During The 19th And 20th Centuries. Makurdi: Aboki Publishers. 143, 143.

(٢) طه، فرح عبد القادر وآخر: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، (الكويت: دار سعاد الصباح، ١٩٩٣م)، ص ٢١٥.

(٣) عياش، ليث محمد: «أنماط العنف الموجه نحو الطلبة وعلاقتها بالتعصب»، المجلد العلمي الخامس لمركز أبحاث الطفولة والأمومة، جامعة ديالى، ٢١٠م، ص ١٤٨.

(٤) Brown, (2001), 211. In: Dirk Kotze and Hussein Solomon, The state of Africa, 83.

(٥) Hicks, T. Another Look, Op. Cit, 36.

(٦) Hoffman, B. (1993). «Holy terror»: W.D.D.C.T.C., Virginia Beach, VA and Gurr, T. R. (1993). Minorities at risk: a Global View of Ethnopolitical Conflicts, Washington DC: Institute of Peace Press.

(حـــرب كاتانغا) في كونغـــو الديمقراطيَّة (١٩٦٠م – ١٩٧٧م)، و (حـــرب بيافـــرا) الانفصاليَّة في نيجيريا (١٩٦٧م – ١٩٧٠م)، التي حصدت ما يربو عن مليون نفس، و (حرب الإبادة) برواندا (١٩٩٤م)، وغير ذلك مـــن الحروب المتكرِّرة بمنطقـــة البحيرات العظمى، وأنغولا، وتشاد، والسُّـــودان، وفي غرب إفريقيا: في ليبريا، وســـيراليون[١]، وكوت ديفـــوار، ومالي، وفي جمهوريَّـــة إفريقيا الوســـطى... وبندر وجـــود دولةٍ إفريقيَّة لم تشـــهد نوعاً من الصِّراع المتلبِّس بصبغة الهويَّة، دينيَّةً كانت أم عرقيَّة.

هذا، ولا شـــكَّ أنَّ تلـــك الصِّراعات تعدُّ من أهمِّ معوِّقات التَّنمية والاندماج الوطني بإفريقيا الحديثة، وتكلّف الشُّـــعوب – قبل الحكومات – خســـائر ماديَّة ومعنويَّـــة باهظة، ففي نيجيريا، على ســـبيل المثال، تجـــاوز عدد ضحايـــا الصِّدامات العرقيَّـــة والدِّينية (٣٠٠٠٠) فيمـــا بيـــن (١٩٨٠م – ٢٠٠٢م)، بمعـــدَّل (١٣٦٣) ضحيَّـــة كلَّ عـــام، وهذا يفـــوق عدد الألف الذي اشـــترط الباحثون أن يبلغه عدد ضحايا العنف الأهلي كلَّ عـــام؛ حتى يوصف بأنَّه: «حرب أهليَّة»[٢]. بل إنَّ وتيرة الخسائر البشريَّة قد تصاعدت في فترة (٢٠٠٢م – ٢٠٠٥م) بنيجيريـــا، وتجـــاوزت (١٠٠٠٠) نفـــسٍ خلال ثلاث ســـنوات فحســـب[٣]، وأصبح من الصَّعب مرور شهرٍ دون وقوعٍ شيءٍ من تلك الصِّدامات الرُّوتينيَّة بتعبير الباحث (Dele Omotunde) حين

يرى باحثون أنَّ تنوُّعات الهويَّة الإفريقيَّة في الدّين واللُّغة والثَّقافة إنَّما هي مصدرُ قوَّةٍ، ومرتكزٌ لتحقيق التَّنمية والاستقرار

قال: «لقد غدت الاضطرابات الدِّينيَّة روتيناً بنيجيريا: حرق البيوت، وتحطيم الممتلكات، وقتل الأبرياء.. كلّ ذلك أصبح أسلوبا مألوفاً للحياة الدِّينيَّة»[٤]، وبتعبير الباحثَين: أُســـاغاهي وســـبيرو، فـــإنَّ نيجيريا هي: «إحدى الدُّول الإفريقيَّة الأكثر تمزُّقاً بالنِّزاعات»[٥].

والمعـــروف أنَّ بعض النِّزاعـــات الإفريقية ذاتُ جذورٍ تاريخيَّةٍ عميقة قبل الحضور الإمبرياليِّ، مثل: صراع النِّيغْري والأَمْهَـــرا وأورومو بإثيوبيا، وصراعات شـــونا وانْديبيلي فـــي زيمبابوي، ولكنَّ الاســـتعمار الإمبريالـــيَّ قد زايَد على تلـــك الصِّراعات، وجعلها ورقةً سياسيَّةً في مشـــروع التَّفريق وإحكام سيطرته على الشُّعوب والموارد[٦]، كما أنَّ تلك الصِّراعات قد اتَّخذت مساراً إثنيّاً في عصر ما بعد الكولونياليَّة، ولم تكن كذلك في القديم.

الإمبرياليَّة وتفتيت القبائل وإثارة النَّزْعات القبَليَّة:

يعود الكثيرُ من صُور «أزمـــات الهويَّة» بإفريقيا

(١) See: Emmanuel Gyimah-Boadi. (2004). Democratic Reform in Africa: The Quality of Progress, Lynne Rienner Publishers. 141-142.

(٢) Elbadawi Ibrahim and Nicholas Sambanis. "Why Are There So Many Civil Wars in Africa? Uderstanding and Preventing Violent Conflict", Journal of African Economies, Vol.9, (Dec 2000): 244-269.

(٣) Hyacinth, Kalu. (2011). Together as One: Interfaith Relationships between African TraditionalReligion, Islam, and Christianity in Nigeria,iUniverse, xv

(٤) Ibid.

(٥) Osaghae, E.E. & R. T. Suberu. (2005). A History of Identies, Violence and Stability in Nigeria. C.R.I.H.S.E., Working paper , No. 6. 4.

(٦) القاسم، صالح محمود: النظام السياسي ومشكلة الجنوب في السودان، (عمان: دار جليس الزمان، ٢٠١٠م)، ص ٣.

الحديثة إلى أثر الاحتلال الإمبرياليِّ المباشر، ولعلَّ أبرز صُوَر ذلك، في مستوى علاقة الأفراد والمجموعات بالدَّولة الإفريقيَّة الحديثة، مفهوم الوطن والمواطنة، ويكمن ذلك في ضبابيَّة هذا المفهوم – أي الوطن – في الذِّهنيَّة الإفريقيَّة، وضعف ولاء الأفراد والمجموعات للدَّولة في مقابل ولائهم للقبيلة، كما سيأتي بيانه.

إنَّ هذه الظَّاهرة في علاقة المواطن الإفريقيِّ بالوطنيَّة ترجع إلى ظروف نشأة الدَّولة القُطريَّة الإفريقيَّة الحديثة، والدور الإمبرياليِّ المباشر في ذلك، يُضاف إلى هذا طبيعة سياسة الدَّولة العاجزة عن استقطاب التَّمايُزات الإثنيَّة في كيانٍ موحَّد مُتَناغم.

توضيحاً لما سبق؛ فإنَّ المعروف أنَّ تقسيم القارَّة إلى دُوَلٍ قد تمَّ في مؤتمر برلين (١٨٨٥م)؛ بحسب مناطق نفوذ الإمبرياليِّين وحدَهُم، ووُضِعَتْ أسماء مُسْتَوْرَدة لها، وأُنْشِئَتْ – في بعض الأحيان – عواصم جديدةٌ وحكومات، كلُّ ذلك دون اعتبارٍ للمجموعات الإثنيَّة التي أريد لها أن تعيش داخل تلك الحدود المصطَنَعة لها[١]، وبتعبير لوردْ سَالْسْبوري – شبه السَّاخر –: «لطالما ظللنا نَقْتَسِمُ الجبال والبحار فيما بيننا، دون أن ندري تماماً مواقع تلك الجبال والبحار»[٢].

بطبيعة الحال؛ فإنَّ هذا التَّقسيم العشوائيَّ، الذي لم يأخذ في الاعتبار إلاَّ مصلحة الإمبرياليِّين وحدهم، قد كان من أهدافه المباشرة تكريس سياسة التَّمزيق والتَّفتيت بالقارة؛ حيث عمدت إلى إجبار مجموعاتٍ إثنيَّة على العيش ضمن إطارٍ جغرافيٍّ محدَّد، دون اكتراثٍ بالماضي التَّاريخيِّ الذي جمع بين تلك القبائل، ويتفاقَمُ الأمرُ حين تشْعُرُ بعض القبائل بأنَّها قد اجتُثَّتْ من مواقعها التَّاريخيَّة إلى مواقع جديدة.

على سبيل المثال؛ فإنَّ مجموعات (ماندينغْ)، التي عاشتْ – من قبلُ – في ظلِّ إمبراطوريَّة مالي القديمة، قد وجدتْ نفسها مشتَّتة عشيَّة تقسيم غرب إفريقيا بين جميع تلك الدُّول تقريباً، وتمَّ كذلك تقسيم بلاد (هَوْسا Bakwai Hausa) بين نيجيريا والنِّيجر[٣]، ومثل ذلك في حال مجموعات (الطَّوارق) المُفتَّتة بين: ليبيا، والجزائر، ومالي، والنِّيجر، وبوركينافاسو. وكذلك (مملكة كونغو) القديمة التي فُتِّتَت إلى قِسْمَين كبيرَين: كونْغو الدِّيمقراطيَّة، وكونْغو برازفيل.

وكان الوضع في الجنوب الإفريقيِّ مماثلاً؛ إذ يندر وجود مجموعةٍ إثنيَّة لم تشملها سياسةُ التَّفتيت، منها مجموعات (باسوتو) التي مُزِّقتْ بين ليسوتو وبين جمهوريَّة جنوب إفريقيا، ومنها مجموعات (تشوانا Tswana) في بوتْسوانا، وفي عددٍ من الدُّول المجاورة.

حتَّى بعد هذا التَّفتيت للقارة؛ فإنَّ الإدارة الإمبرياليَّة قد عمدت إلى كلِّ دولةٍ – على حدَة – فقامت بتفتيتها داخليّاً، وتقسيمها إلى مناطق إثنيَّة؛ إيغالاً في التَّفريق والتَّمزيق، وقد ذهب الباحث أوباري (Uebari) إلى وصف هذا الوضع بنيجيريا – مثلاً – بأنَّه: «قد أدَّى إلى تفكيك الدَّولة، وتحطيمها، وليس بنائها وتأسيسها»[٤].

---

(١) القاسم، صالح محمود: النظام السياسي، مرجع سابق، ص ٢٥.

(٢) Hargreaves, J.D. "The Making of the Boundaries: Focus on West Africa", in: Asiwaju, A. I. (1985). Partitioned Africans: Ethnic Relations Across Africa›s International Boundaries, 1884-1984, 22.

(٣) يُراد ببلاد هوسا (Hausa Land / Bakwai Hausa): المناطق الواقعة شماليَّ نهر النيجر ونهر بِنْوي (Benue river)، وتمتدُّ غرباً حتى جمهوريَّة بنين الحالية، وشرقاً حتى مرتفعات باوشي، وتصل حتى الشَّمال الشَّرقي في بورنو، وحدود نيجيريا الحديثة مع النيجر.

(٤) Uebari, Kingom. E. Orji, N-Ue, Uebari Samuel, Ethnicity and Nation Building in Africa and the Remedial Strategies: The Nigeria Case, ICHEKE Journal, http://ichekejournal.com/ Accessed: 7 Dec, 2015.

بالإضافة إلى هذا التَّقسيم العشوائي الذي تمَّ طبْقاً لمناطق نفوذ الإمبرياليِّين، وما نتج عنه من تفتيتٍ اجتماعيٍّ ثقافيٍّ للنَّسيج البشري، فإنَّ شكل الدَّولة الإفريقيَّة الحديثة يكشف عن نشازٍ هندسيٍّ وجغرافيٍّ واضح؛ إذ نجد أطراف دَوْلة داخلةً دخولاً فاحشاً في دولة أخرى، ونجد نتوءات وأغواراً كثيرة في خريطة الدَّولة الإفريقيَّة[١]، بل إنَّ بعض الدُّول – وبخاصَّة المصغَّرة – مثل ليسوتو وسوازيلاند وغامْبيا، هي من قَبيل: «دولة داخل دولة»، ولا شكَّ أنَّ عدم التَّجانُس والتَّوازُن النِّسبيِّ في خريطة الدَّولة الإفريقيَّة يمثِّل وقوداً نشطاً للكثير من الاضطرابات السِّياسيَّة والاجتماعيَّة، وعدم شعور المواطنين بالانتماء الحقيقيِّ إلى الدَّولة التي قيل لهم إنَّهم مواطنون فيها.

هذا، وغنيٌّ عن القول: إنَّ هذا التَّرسيم المتعسِّف للدَّولة الإفريقيَّة، وتفتيت المجموعة الإثنيَّة الواحدة بين أكثر من دولة، قد أدَّى ببعض تلك المجموعات إلى كونها أقليَّةً في دولة، وأكثريَّة في دولة أخرى، ومن تبعات ذلك تدخُّل الأكثريَّة لصالح الأقليَّة في البلد الآخر، وبذلك فإنَّ بعض النِّزاعات الدَّاخليَّة ضيِّقة النِّطاق سرعان ما تأخذ بُعداً إقليميّاً، ويتعذَّر تطويقها (نزاعات البحيرات العظمى مثلاً).

أخيراً؛ فإنَّ الأفراد والمجموعات تحت هذا الوضع يعانون تشتُّت الهويَّة، خصوصاً إذا كانت الدَّولة التي وُجد فيها الفردُ نفسه تُعَامِلُهُ بوصفه مواطناً من الدَّرجة الثَّانية؛ بينما يُعامَلُ في الجهة الأخرى معاملةً أكثر احتراماً.

الإمبرياليَّة والكنيسة وتأجيج صراع الهويَّة الدِّينية في إفريقيا:

على الرُّغم من أنَّ النِّزاعات الأهليَّة والفُرقة الوطنيَّة بإفريقيا لا تستجيب لمتغيِّرٍ واحدٍ؛ فإنَّ الدَّور الكَنَسيَّ في إحداث تلك النِّزاعات، وفي تعميق الهوّة بين الإثنيَّات، له أثرٌ ملموسٌ في أكثر من بلدٍ إفريقيٍّ، على امتداد التَّاريخ الإفريقيِّ الحديث منذ الحضور الإمبرياليِّ.

ويمكن رصد ذلك في عدَّة حقائق ووقائع:

أ – الكنيسة حليفاً للإمبرياليَّة: إنَّ دور الكنيسة السلبيَّ في الوحدة الوطنيَّة يمكن إرجاعه إلى الحضور الكَنَسيِّ الأوَّل بإفريقيا، بوصف الكنيسة رديفاً للمحتلِّ الإمبريالي، وكونها جهازاً من الأجهزة الفعَّالة في تحقيق مآرب الإمبرياليِّين، وقد حدَثَ ذلك بتوافُقٍ تامٍّ بين الاثنين، لا على حين غفلةٍ من الكنيسة.

يؤكِّد الباحث كراوْديرْ هذه الحقيقة في حقِّ الكنيسة بقوله: «إنَّ المبشِّرين الأوائل بغرب إفريقيا كانت لهم مهمَّةٌ مُزْدَوَجة: التَّرويج للتِّجارة بين إفريقيا وأوروبا، وتحويل الأفارقة إلى المسيحيَّة»[٢].

كذلك يؤكِّد المؤرِّخ ولترْ رودني هذه الحقيقة قائلاً: «إنَّ المبشِّرين المسيحيِّين كانوا جزءاً مهمّاً للقوَّات الكولونياليَّة، مثل المستكشفين، والتُّجار، والجنود.. لقد كانوا أداةً للكولونياليَّة في جانبها العمليِّ، سواء اعتَبروا أنفسَهُم كذلك أم لا»[٣].

وبتعبيرٍ طريفٍ يصف الباحث عيمانْويلْ الكنيسة بأنَّها: «spiritual wing of secular Imperialism = الجناح الرُّوحي للإمبرياليَّة العلمانيَّة»[٤].

وبتعبير المفكِّر الدِّيني امْبيتي؛ فإنَّ «الصُّورة التي اختزنها الأفارقة عن المسيحيَّة، وما زالوا

(١) القاسم، صالح محمود: النظام السياسي ومشكلة الجنوب في السودان، ص ٢٧.

(٢) Crowder, Michael (1962). The Story of Nigeria. London: Faber and Faber, 111.

(٣) Rodney, Walter. (1972), How Europe Underdeveloped Africa, Black Classic Press, 277.

(٤) Etim, E. Okon. (2014). "Christian Missions And Colonial Rule in Africa: Objective and Contemporary Analysis", European Scientific Journal, June, Vol.10, No.17, 192 :209-199.

يحتفظون بها لأبعد الحدود، كونها مُصطبغةً بشـدَّة بالحكم الكولونياليِّ، وبكلِّ ما في الكولونياليَّة. إنَّنا ما زلنا أكثر قرباً من تلـك الفترة التي يتعذَّر علينا فيها التَّفريق بين الاثنين»[١].

أمَّا الشَّواهد والوقائع التَّاريخيَّة على كون الكنيسة رديفـاً حقّـاً للإمبرياليَّة فهي كثيرةٌ، فقد سـاندَتْ الكنيسة العالميَّة تجارةَ الرَّقيق عبر الأطلسيِّ، ووفَّرت للأوروبيِّين السَّند الرُّوحيَّ لهذه التِّجارة[٢]، وفي فترة نظام التَّمييز العنصريِّ بجنوب إفريقيا؛ فإنَّ كنيسـة (Dutch Reformed Church, DRC) هي التي كانت تمدُّ نظام «الأبارْتَهايدْ» بالتَّبرير الدِّينيِّ لأفعاله، وذلـك بناءً على عقيـدة «Calvinism» التي تزعم بأنَّ النَّاس يتفاضلون في الأصل البشـريِّ، وأنَّ منهم ناجين سُعداء بداءةً، ومنهم أشقياء هالكين كذلك، وأنَّ البيض يمثِّلون الفئة النَّاجية!

ب – الكنيسـة وسياسـة التَّفريـق الإمبريالي: المعروف أنَّ من سياسـات الإمبرياليَّة الاستراتيجيَّة سياسـة «فـرِّقْ تَسُـدْ!»، ومـن توظيفـات ذلـك قيـام الإمبريالـي والباحثيـن وعلماء السُّـلالات بالتَّرويـج لنظريَّة: (الفرضيَّـة الحامية Hamitic Hypothesis)، أي الأصـل الحامـي لبعـض المجموعـات الإفريقيَّـة، وبموجبهـا تـمَّ تصنيف المجموعات الإفريقيَّة إلى: حامية وبانْتُويَّة، والادِّعاء بـأنَّ المجموعات ذوات الأصـول الحاميَّة هي أذكى وأعلى قدراً من ذوات الأصول البانْتُويَّة[٣].

تلقَّفت الكنيسـة هذا الطَّرح، واتَّفق القساوسـةُ مع الإمبرياليِّيـن لتطبيق هـذه الفرضيَّة بالمجتمع الرُّوانديِّ، فزعموا أنَّ الأقليَّة التُّوتسـي (١٥٪)، هي مـن الأصل الحامـيِّ، وأنَّهم «قـادة بالأصالة»، وأنَّ لها الأولويَّة فـي التَّعليم والوظائـف الإداريَّة وتقلُّد سدَّة الحكم، وقاموا بوضع مشـروع عُرِف بمشروع: «التَّوازن القبلي والإقليمي» في مدارس الإرسـاليَّات الكاثوليكيَّة[٤]، فحدَّدوا نِسَـب قبـول الأكثريَّة الهوتو (٨٤٪) بالمدارس الكَنَسيَّة بـ (٤٪) فقط[٥].

ومـن مشـاهير رجـالات الكنيسـة المرتبطة أسماؤهم بالسِّياسـة الإمبرياليَّة بمنطقة البُحيرات العظمـى: الأب كلاسْ Mgr Classe، والأب مورتيهانْ Mgr Mortehan، والكاردينال لافيجيري Cardinal Lavigerie، وأكَّد أحدُهم في مذكِّرةٍ له بأنَّ تبنِّي هذا الطَّرح الزَّائف كان في صالح التَّبشير؛ لذلك أخذوا به، وروَّجوا له ووظَّفوه[٦].

ج – الكنيسة والتَّمركُز الإثني: إنَّ ظاهرة التَّعصُّب القبَلي موجـودةٌ أيضاً في الكنائس، يمكن تلمُّسـها في عدَّة صُوَر، أبرزها التَّنظيم الهيكلي للمؤسَّسـات الكنسـيَّة، فهي مثـل الوظائـف الحكوميَّة، تخضع للولاءات الإثنيَّة. يؤكِّدُ الباحث واروتا ذلك بقوله: «إنَّ معظم الجماعات والطَّوائف الكنسـيَّة، حين نتأمَّلها عن قُرب، نجدها عرقيَّة فـي تكوينها وفي قياداتها، وحتـى تلك التي يُصادَف أن تكـون متعدِّدة الإثنيَّات في إطارٍ وطنيٍّ، فإنَّها موبـوءةٌ بخلافاتٍ داخليَّة بين

(١) Mbiti, John. (1969). African Religions and Philosophy, London: Heinemann, 231.

(٢) Robert O Collins. (2005). Problems in African History: The Precolonial Centuries, Markus Wiener, 314.

(٣) E.R. Sanders, (1969). "The Hamitic Hypothesis: Its Origin and Functions in Time Perspective", The Journal of African History, Vol.10, No.4, 521-532.

(٤) Ndahiro, Tom. "Genocide and the Role of the Church in Rwanda", Pambazuka News, April (16, (2005.

(٥) Josias, Semujanga. (2002). The Origins of Rwandan Genocide, Humanity Books, 139.

(٦) Joan, Kakwenzire and Dixon Kamukama, «The Development and Consolidation of «1994-Extremist Forces in Rwanda 1990 in: Howard Adelman &AstriSuhrke. (2000). The Path of a Genocide: The Rwanda Crisis from Uganda to Zaire, Transaction Publishers, 85.

الإثنيَّات»[١].

وجهٌ آخر من التَّعصُّب القبَليِّ في الكنائس الإفريقيَّة أشار إليها واروتا، وهو يرتبط بالتَّصير المستَهْدَف المُنَمذَج، أي توجيه الجهاز التَّصيريِّ – في فترةٍ من الفترات – نحو مجموعةٍ إثنيَّة معيَّنة من أجل أن تقوم –فيما بعد – بمهمَّة التَّكافؤ، أو بالأحرى مهمَّة النِّديَّة في وجه مجموعات إثنيَّة أخرى، وبخاصَّة مجموعاتٍ دينيَّة مختلفة، وكثيراً ما تُختار المجموعات الإثنيَّة ذات الأقليَّة في هذا التَّصير المستَهْدَف[٢].

ونتيجةً لهذا التَّنافس الإثنيِّ داخل المؤسَّسة الكنسيَّة؛ فإنَّ كلَّ مجموعةٍ إثنيَّة تَنْزع إلى اتِّخاذ قادتها، وتأسيس كنائسها، وأحياناً يُبرَّر هذا الإجراء باعتباراتٍ لغويَّة وثقافيَّة، ولكنَّ الحقيقة أنَّ ذلك ناشئٌ عن منافسةٍ إثنيَّة بين أتباع المسيحيَّة[٣].

د – مشاركة مباشرة في النِّزاعات الدَّامية:

بالإضافة إلى ما سبق، من إسهام للكنيسة في سياسات التَّفريق وتأجيج التَّعصُّب الإثنيِّ في المجتمعات الإفريقيَّة، فإنَّها قد كانت طرفاً مباشراً في حالاتٍ من النِّزاعات الدَّاميَّة في رواندا، وفي نيجيريا، وساحل العاج، ففي رواندا كانت الكنيسة الكاثوليكيَّة – بشكلٍ أساسيٍّ – ذات علاقةٍ مباشرةٍ في حرب الإبادة التي أوْدَتْ بأرواح حوالي مليون ضحيَّة في حوالي مائة يوم فحسب!

ومن أبشع نماذج القساوسة الهوتو الذين قتَلوا المئات والآلاف من أتباعهم:

– الأب Athanase Seromba، راعي كنيسة (Nyange) الكاثوليكيَّة، وهو الذي أغرى أتباعه على التَّجمُّع في كنيسته، وقام بنزع أسلحتهم، ثم خطَّط مع الميليشيَّات لقتلهم، بل أمر باستعمال الجرافات لطمر الكنيسة على اللاَّجئين، وقتل منهم ما بين (٢٠٠٠) إلى (٢٥٠٠) بردم البناية عليهم، ورمي القنابل اليدويَّة بينهم[٤].

– الأب Elizaphan Ntakirutimana، في كنيسة السَّبتيِّين؛ الذي أعان على قتل حوالي (٨٠٠٠) من اللاَّجئين بكنيسته بمدينة (Mungonero).

– الأسقف Aaron Ruhumuliza، رئيس الكنيسة الميثوديَّة (Free Methodists) في كيغالي.

– الأب Samuel Musabyimana.

– الأب ميشال Michel Twagiryesu، رئيس الكنيسة الإنجيليَّة المشيخيَّة (Presbyterian) في رواندا، وكان نائباً لرئيس المجلس العالمي للكنائس.

– الأب Elizaphan Ntakirutimana، رئيس كنيسة السَّبتيِّين (Seventh Day Adventist).

فجميعُ هؤلاء من رؤساء الكنائس في رواندا، ومن رجالات المسيحيَّة العالميَّة سلَّموا أتباعهم من التُّوتسي إلى الميليشيَّات والجنود القتلة[٥].

ومن الإنصاف الإشارةُ إلى بعض الآباء الذين حَمَوا اللاَّجئين، وحافظوا على الأرواح[٦]، منهم:

– الأب Celestin Hakizimana، بكيغالي، وقد حمى حوالي ألفي لاجئ بكنيسته.

– الأب Bosco Munyaneza.

– الرَّاهبة Felicitee Niyitegeka.

---

(١) David W. Waruta, «Tribalism as a Moral Problem in Contemporary Africa,» in: Jesse N. K. Mugambi and Anne Nasimiyu-Wasike, eds., (1992). Moral and Ethical Issues in African Christianity (Nairobi: Initiatives Publishers, 112-130: 127.

(٢) Ibid.

(٣) Ibid.

(٤) Pauw, Jacques. (2006).Dances with Devils: A Journalist's Search for Truth, Zebra, 107.

(٥) Stephen, Rwembeho. "When Churches became a Killing Field", The New Times, March 25, (2007), www.newtimes.co.rw/

(٦) Mamdani. (2001). When Victims Become Killers: Colonialism, Nativism, and the Genocide in Rwanda, Princeton, University Press, 226.

وجميع أولئك قد قُتلوا في كنائسهم مع اللاجئين، وكان باستطاعتهم النَّجاة بأنفسهم؛ لكنَّهم رفضوا عروض الخروج وخذلان الجماعات المحتمية بكنائسهم[1].

بالإجمال؛ فإنَّ الكنسية كانت طرفاً مباشراً في تأجيج روح الفُرقة، وفي تعميق الصِّراعات بين المجموعات الإثنيَّة، وانسحب ذلك على امتداد الوجود الإمبرياليِّ بالقارَّة.

كما شمل المنصِّرين البيض، وخلفاءهم من المنصِّرين الأفارقة، فكما لم يختلف الزُّعماء السِّياسيُّون الأفارقة عن سَلَفهم الإمبرياليِّين، فإنَّ القساوسة الأفارقة لم يختلفوا عن سَلَفهم (الآباء البيض).

الهوية بين القبيلة والوطن:

عند محاولة النَّظر في مفهوم: (الهويَّة القبليَّة، والهويَّة الوطنيَّة) لدى الفرد الإفريقيِّ، فلا بدَّ من الرُّجوع إلى بنية الرُّؤية الإفريقيَّة نفسها عن علاقة الفرد بالمجموعة التي ينتمي إليها، إنَّ هذا الرُّجوع هو الذي يضمن إيجاد علاقة توافُقٍ بين جانِبَيْ الهويَّة القبَليَّة والهويَّة الوطنيَّة.

بهذا الصَّدد؛ نجد أنّ ثمَّ خطأً جسيماً قد وقع فيها دُعاةُ «الاندماج الوطني» في الدُّول الإفريقيَّة عشيَّة استقلالها وتأسيس حكوماتها الأولى، ألا وهو رفع شعار «إزالة القبليَّة» (de-tribalization)، في أكثر من دولة إفريقيَّة.

إنَّ هذا الشِّعار يتنكَّرُ لركيزةٍ أساسيَّة في رؤية العالَم عند الإفريقيِّ تُعرف بـ «رؤيا الجماعيَّة» (Ubuntu / Communalism)، وبموجبها لا يُتَصوَّرُ وجود الفرد إلا في إطار المجموعة.

وقد كان الأحرى بالدَّعوات الوطنيَّة، وبشعارات الاندماج الوطني، الانطلاق من هذه الرَّكيزة وتعزيزها، ومِنْ ثَمَّ وضعها في الإطار الوطنيِّ الموسَّع.

ولا شكَّ أنَّ إخفاق دعوات الاندماج الوطني مردُّها إلى أنَّها لم تنطلق من الواقع الإفريقيِّ نفسه، وإنَّما من رؤًى إمبرياليَّة غريبة؛ لذلك لم تُنتج تلك السِّياساتُ الاندماجيَّة إلاَّ أفراداً سلبيِّين مُنبتِّين عن أصولهم، غير واصلين إلى النَّموذج الغربي للاندماج الوطنيّ، والولاء للدَّولة كما ينبغي.

عليه؛ فإنَّ من مظاهر هذا الخطأ في سياسات دعاة الاندماج الوطني غياب الشُّعور المشترك بين المجموعات العرقيَّة بالانتماء إلى كيانٍ سياسيٍّ موحَّد، خصوصاً عندما تكون تلك المجموعات موزَّعةً على أكثر من دولة، وقد يكون انتماءُ بعض أولئك إلى الدَّولة الأخرى أقوى من انتمائها إلى الدَّولة التي تُعدُّ هي مواطنةً فيها، وذلك نتيجةٌ منطقيَّة؛ لأنَّ الرَّابطة العرقيَّة تتَّسمُ بالثَّبات أكثر من الرَّابطة الوطنيَّة، خصوصاً في سياق الدُّول الإفريقيَّة التي تشهد تحوُّلات سياسيَّة متعاقبة.

أمرٌ آخر يؤدِّي إلى إضعاف علاقة المواطن الإفريقيِّ بدولته، وهو أنَّ الدَّولة نفسها تسير -عادةً - في تعزيز الكراهيَّة، وتكريس دواعي الانقسام بين الشَّعب؛ حذواً بحذْو بالقوى الإمبرياليَّة، من صُوَر ذلك: أنَّ الحكومات الخليفة للإمبرياليَّة تتبنَّى سياساتٍ تقسيميَّة، حتى في الظُّروف العاديَّة، وأقرب مثالٍ على ذلك: أنَّ البطاقات الشَّخصيَّة الوطنيَّة في بعض الدُّول الإفريقيَّة لا تزال يُشارُ فيها إلى الفئة الإثنيَّة للمواطنين، دون أن يكون لهذا التَّحديد أثرٌ معيَّنٌ في التَّنظيم الإداريِّ، والأدهى من ذلك أن يتمَّ التَّعامُلُ مع الأفراد من لدُن الشُّرطة، أو غيرهم من موظَّفي الدَّولة، والقبول في الوظائف، والحصول على الخدمات الإداريَّة.. وغير ذلك[2]، بناءً على هذا التَّحديد.

منها أيضاً: تقسم الدَّولة إداريّاً إلى مناطق

(١) Catherine, Coquio. (2004). Rwanda: Le réel et les récits, Belin, 202.

(٢) Bruce Berman, et al. (2004). Ethnicity & Democracy in Africa, James Currey Publishers, 66.

وولايـــات بناءً علـــى التَّوزيـــع الإثنيِّ، ومـــا يعُجُّ به الإعلام من إشـــارةٍ إلى «الشَّمال المسلم» و «الجنوب المسيحيِّ» في حالِ نيجيريا، وساحل العاج، وغانا... وكلُّ ذلك يكرِّس النَّزعـــة القبَليَّة والصِّراعات الدِّينيَّة في المجتمع.

الواقع الجديد في «ما بعد الاستعمار»:

بصرف النَّظر عمَّا بين الباحثين من جدَلٍ حول وجود واقعٍ يمكن تســميته: «ما بعد الاســتعمار»؛ فإنَّ المتَّفق عليـــه أنَّ واقع الدُّول الإفريقيَّة هـــو دون المأمول الذي كانت تطمح إليه الشُّعوب التي ناضلَتْ بكلِّ ما أوتيتْ من قوَّة؛ من أجل تحقيق الاستقلال وإزالة الإمبرياليَّة.

بل إنَّ الدَّولة الحديثة، التي تمخَّض عنها الاستعمار في معظم المناطـــق الإفريقيَّة، هـــي دون الكيانات الإفريقيَّـــة القديمة فـــي مجال الحكم والسِّياســـة، والحفاظ على التَّنوُّع الإثني داخل كيانٍ سياسيٍّ موحَّد دون اللُّجوء إلى الوســـائل القمعيَّة الاحتوائيَّة؛ إذْ قد وُجِدَتْ أنظمةٌ سياســـيَّةٌ جدُّ منظَّمة بحسب المعايير آنذاك، منها: مملكة بوغندا في الشَّرق، وإمبراطوريَّة مالي، وصونْغاي في الغرب، ودولة الخلافة الصُّكتيَّة بالسُّودان الأوسط (شمال نيجيريا الحاليَّة)، ويذهب الباحث نويو إلى أنَّ تلك الكيانات المتأخِّرة – من هذا النَّـــوع – لو لم يجهضها الإمبرياليُّ لتطوَّرت إلى نظام الدَّولة الحديثة[١].

وفي هذا الإطار كان الكفاح عشـــيَّة اســـتقلال الدُّول الإفريقيَّة يتلخَّصُ في مسارَين: «إعادة الأفْرَقَة» (re-Africanization)، أو «إزالـــة الكولونياليَّـــة» (decolonisation)، وكلاهمـــا كان – في الواقع – ينتهي إلى نتيجةٍ واحدة[٢].

وإذا كانت إفريقيـــا الحديثة نتاج واقعٍ مفروض؛ فإنَّ محاولة العودة إلى الخبرات والحقائق الإفريقيَّة القديمة، من أجل بناء الدَّولة الإفريقيَّة الحديثة، تعدُّ محاولـــةً مجازفةً إلى أبْعَد الحدود، توشـــك أن تزجَّ بإفريقيا في خندقٍ أعمَقَ ممَّا هي فيه الآن.

كذلك؛ فإنَّ شـــعار «إفريقيا الموحَّـــدة»، وإلغاء الحدود المصطنعة، ســـوف يظلُّ شعاراً طوباويّاً إلى أجلٍ غير مُسمَّى.

بناءً علـــى كلِّ تلك الاعتبارات؛ فليس في وُســـع القـــارَّة إلاَّ المراهنة على الواقع، وذلك في العمل من أجل تقليص الآثار السِّـــلبيَّة للإمبرياليَّة التي خصَّبتْ الكثير من عوامل التَّخلُّف بالقارة، وبنجاح هذا العمل في تقليص الآثار السِّـــلبيَّة للإمبرياليَّة؛ فإنَّ الأجيال القادمة قـــد تجد أمامهـــا فُرَصاً عـــدَّة في العلاج الجذريِّ لآثـــار الإمبرياليَّة، وتحدِّيات نشـــأة الدَّولة الإفريقيَّة نشأةً غير طبيعيَّة.

ولعلَّ أبرز المجالات التي يمكن الاســـتثمار فيها من أجل تصحيح الواقع الإفريقيِّ يكمُنُ في الآتي:

أ – الهويَّـــة والتَّغريب الثَّقافـــي والفكري: قد لا يختلف اثنان علـــى أنَّ الشَّـــخصيَّة الإفريقيَّة تعاني ازدواجيَّةً حادَّة، وأزمةً شـــديدةَ الوطـــأة في هويَّتها؛ من جراء سياســـة التَّغريب الإمبرياليَّة، فالمعروف أنَّ «الثَّقافة التي تشـــهد تصارُعـــاً تؤثِّرُ كثيراً في ضعف تكوين الهويَّة»[٣]، وقد زاد الطِّينُ بِلَّةً بتبنِّي السِّياسات الإفريقيَّة لسياســـة الغرب بحذافيرهـــا في التَّربية والإعلام، وغيرها من المجالات المسؤولة عن تشكيل الهويَّة.

ب – وضع مفهوم (الإثنيَّـــة / القبَليَّة) في إطاره الصَّحيـــح: إذا كان لبعض الباحثيـــن اعتراضٌ على

(١) Ndanga, Noyoo. (2000). «Ethnicity and DevelopmentisSub-SaharanAfrica », Journal of Social Development in Africa, Vol.15, No.2, July-55, 67-60.

(٢) Ndlovu, Gatsheni, et al. (2013). Nationalism and National Projects in Southern Africa: New Critical Reflections, Africa Institute of South Africa, 90.

(٣) عبدالرحمن، محمد السيد: نظريات النمو، علم نفس النمو المتقدم، (القاهرة: مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م)، ص ١٥٩.

مصطلح «قبيلة tribe» جملةً وتفصيلاً في السِّياق الإفريقيِّ[١]؛ فإنَّ لهم بعض الحقِّ في ذلك، خصوصاً في المفهوم الذي استقرَّ في الأذهان عن «القبَليَّة» بإفريقيا، وكما يصرِّح به الباحثُ أبْتوربْ؛ فإنَّ النِّظام الكولونيالي قد خلق القبائل على النَّحو الذي نتصوَّره اليوم[٢]. عليه؛ فإنَّ تصحيح الأفهام، عن هذا المفهوم، سوف يُسهم في الحدِّ من حدَّة الفهم المغلوط عن هذه الظَّاهرة الاجتماعيَّة.

ج – النموذج الغربيُّ في الحكم نموذجٌ تجريبيٌّ: من أكبر إشكالات «ما بعد الاستعمار»، استنساخ إفريقيا للتَّجربة الغربيَّة في الحكم والسِّياسة إلى الواقع الإفريقيِّ؛ دون اكتراثٍ بمدى ملاءمة تلك التَّجربة لإفريقيا، والصَّحيح اعتبار (النموذج الغربيِّ) مرحلةً تجريبيَّة خاضعة لمعايير الصواب والخطأ، نتخطَّاها إلى ما هو أكثر انسجاماً بإفريقيا، والحال أنَّ الإمبرياليَّ: «لم يُخلِّف وراءه خليطاً منوَّعاً من دُوَلٍ مستقلَّة عديدة فحسْب، بل إنَّ الدُّول التي تمخَّضتْ عنها تلك العمليَّة كانت هي ذاتها كيانات مُصطنَعَة، فلم تكن قد بلغتْ بعدُ مرحلة الدَّولة القوميَّة بأيِّ حالٍ من الأحوال، بل كانت بمثابة غلاف استقلالٍ إقليميٍّ، أوْدَعَتْه حركات الاستقلال نواة الذَّاتيَّة الوطنيَّة»[٣].

الهويَّة الوطنيَّة والقبَليَّة: تكامُلٌ، لا تنازع:

على الرُّغم ممَّا أحدثَتْهُ ظروف تفتيت القارَّة من أوضاعٍ اجتماعيَّة، وظروف سياسيَّة حادَّة، وارتفاعٍ لحدَّة النَّزعات القوميَّة بالقارة، فإنَّ ثمَّة مواطن من التَّلاقي والتَّلاقُح ممكنةٌ بين الهويَّة القبَليَّة وبين الهويَّة الوطنيَّة، يمكن استثمارها في مشروعات بناء الدَّولة الإفريقيَّة، وتحقيق استقرارها، وهي:

أ – إشكالٌ في التَّعامُل مع التَّعدُّد وليس في التَّعدُّد ذاته: يرى باحثون أنَّ تنوُّعات الهويَّة الإفريقيَّة في الدِّين واللُّغة والثَّقافة إنَّما هي مصدرُ قوَّةٍ، ومرتكزٌ لتحقيق التَّنمية والاستقرار. غير أنَّ الإشكال يكمن في الإخفاق في استغلال تلك التَّنوُّعات، فالدُّول الأوروبيَّة (فرنسا مثلاً) ليست بأقلَّ تنوُّعاً في اللُّغات والإثنيَّات من بعض المناطق الإفريقيَّة. ثم إنَّ ما يُذكر عن التَّنوُّع الكبير بإفريقيا مبالَغٌ فيه، أو هو معروضٌ بشكلٍ مغلوط، فإذا كانت بإفريقيا مثلاً أكثر من (٢٠٠٠) لغة، أي أنَّ حوالي (٣٠٪) من لغات العالم موجودة بإفريقيا[٤]؛ فإنَّ خَمْس لغات فقط بغرب إفريقيا (هوسا، ويوربا، وفولاني، وإيبو، ومادينغ) يمثِّل متحدِّثوها (٨٠٪) من إجماليِّ متحدِّثي لغات المنطقة. مثال آخر في نيجيريا؛ إذْ توجد بها ما بين (٤٠٠ – ٥٠٠) إثنيَّة لغويَّة؛ لكنَّ اللُّغات الثَّلاث الكبرى بها: (هوسا، ويوربا، وإيبو) تمثِّل نسبة (٦٥٪) من عدد اللُّغات بنيجيريا[٥].

وكما يؤكِّده يونغْ؛ فإنَّ الإشكال في «الظَّرف التاريخي» الذي أنشأه الكولونياليِّ، وإخفاق السِّياسات الإفريقيَّة في التَّعامل مع تلك الظُّروف، وليس في الاختلافات الإثنيَّة نفسها، ويرى مثلاً أنْ لو اختلفت الظُّروف التَّاريخيَّة لما كانت علاقة هوتو بتوتسي، أو علاقة إثنيَّة هيما بإثنيَّة لينْدو (Hema, Lendu)

(١) Aidan, W. Southhall. « The Illusion of Tribe », in : Roy Richard Grinker, et al. (2010). Perspectives on Africa: A Reader in Culture, History and Representation, 83-94.

(٢) Kotze, Dirk, Hussein Solomon. (2008). The State of Africa: Post-conflict Reconstruction and Development, African Books Collective, 84.

(٣) Mazrui, A. A. (ed). (1999). General History of AfricaSince 1930, California : University of California Press, 794.

(٤) Heine and Nurse (ed). (2002). AfricanLanguages: An Introduction, Cambridge Unv. Press, 1.

(٥) Akintunde, Oyetade. Ethno-Linguistic competition in the Giant of Africa, in: Andrew -Simpson, Language Vitality in Africa, 172 198.

في الكونغو، على ما هي عليه اليوم من العداء[١].

ب – النَّزْعة القَبَليَّة ليســتْ قوَّة هدَّامة: إذا كان بعض الباحثين يرون القَبَليَّة قوَّةً ســلبيَّةً هدَّامة؛ فإنَّ آخريــن يرونها على خلاف ذلــك[٢]، وكما يصرِّح به الباحثــان: محمود مندلي و وامْبا؛ فــإنَّ القبليَّة في المجتمع الحديث ليســت مصدر شرٍّ، ولكنَّها مصدر قوَّة مدنيَّة، وإنَّما الخطأ في طريقة توظيف القبليَّة[٣]. ثمَّ إنَّ نزعة الانتماء إلى مجموعةٍ اجتماعيَّة تعدُّ لازمةً اجتماعيَّة في تكامُل شــخصيَّة الفرد – كما ســبق بيانُه في مستهلِّ هذا المقال –، فمن الضَّروريِّ إذنْ: اتِّخاذُها منطلقاً أساســيّاً من أجــل تنظيم المجتمع واســتقطابه في بناء الدَّولة وتنمية المجتمع، فهناك الكثير من الأفراد يمكن – فقط – استقطابُهم وانتزاع ولائهــم المطلق عبر الوســائط الضَّيِّقة من الانتماء القبَلي، أو غير ذلك من المجموعات الاجتماعيَّة.

ج – فهــمٌ مغلــوطٌ للعلاقة بين الهويَّــة الوطنيَّة والهويَّة القَبَليَّــة: من الخطأ توهُّم تعارض بين الهويَّة الإثنيَّة والهويَّة الوطنيَّة الحديثة، فالهويَّة الإثنيَّة تُعتبر دائرةً صغــرى داخل الدَّائرة الوطنيَّة الكبرى، وبينهما علاقــة تضمُّن، فلا وجود لهويَّــة وطنيَّة بدون هويَّة قبَليَّة، وبتعبير الباحث إيْلايْغــوُو (Elaigwu): فإنَّ بنــاء الدَّولة والولاء للوطن لا يعني «تحويل الولاء» من الدَّائرة الصُّغرى للقبيلة إلى الدَّائرة السِّياسيَّة الكبرى للدَّولة، وإنَّما يعني: «تعميق الولاء والانتماء» وتوســيع أبعاد الهويَّة؛ لتشمل وحداتٍ كبيرة مثل الدَّولة[٤].

نخلص مــن كلِّ ذلك إلــى: أنَّ الإشــكال ليس فــي التَّنوُّع الإثنيِّ، وإنَّما في مــدى كفاءة الحكومات الإفريقيَّة في بناء دولة قائمة على بنيةٍ تحتيَّة سياسيَّة واجتماعيَّة واقتصاديَّةٍ مغريةٍ للمواطنين، ويشمل ذلك كلَّ محدِّدات الدَّولة الحديثة، من طُرقٍ معبَّدة، وتوفير للمياه العذْبة، والطَّاقة، والمرافق الصِّحيَّة، والتَّعليم، وفُــرَص التَّوظيف المتكافئ، وغيرهــا من المظاهر الإنمائيَّــة الماديَّة والمعنويَّة. فــلا يمكن انتزاع ولاءِ الأفراد للدَّولــة بمفهومها المجرَّد إلاَّ إذا كانت هناك بيئــةٌ صالحــةٌ ماثلةٌ مترجمةٌ فــي أرض الواقع، من احترام الحريَّات، وتوفير وســائل العيش والرَّفاهيَّة، فحينئذٍ يمكن أن يميل الأفرادُ إلى حبِّ تلك المظاهر، والعملِ على حمايتها، والشُّعور بالمصير المشترك.

إلى جانب ذلــك؛ فإنَّ هناك ملاحظــاتٍ كثيرةٍ حول الإثنيَّة أو الهويَّــة الاجتماعيَّة تُغري على النَّظر الإيجابيِّ لها، فقد لُوحِظَ مثلاً أنَّ النِّزاعات الإفريقيَّة تميل إلى كونها «نزاعاتٍ علــى مواطن النُّفوذ»، أكثر منها نزاعاتٍ حول تأكيدِ الهويَّة الإثنيَّة، مما يدلُّ على ضعف المحدِّد الإثنيِّ أو الدِّينيِّ أو اللُّغويِّ في إحداث الاضطرابات.

أيضاً؛ فــإنَّ الإثنيَّة أو الهويَّــة الاجتماعيَّة تقوم بمهمَّــة المراقبة والتَّوازن في إطــار الجهاز الوطنيِّ الموسَّــع؛ إذ تقوم بالمطالبة بالعدالــة الاجتماعيَّة، وتلفت الأنظار إلى حقوق الأقليَّات، وإلى توزيع موارد الدَّولة توزيعاً منصفــاً، والتَّمثيل الحكوميِّ لأفرادها، وغيــر ذلك من المجــالات التي تضيــع فيها حقوق الأقليَّات في خضمِّ التَّركيز على البُعد العام.

والإشكال الحقيقيُّ يكمُنُ في سوء استغلال «النُّخبة المفترســة» (Predatory Elite) من السِّياســيِّين للتَّنوُّعات الإثنيَّة لأهدافٍ سياسيَّة شخصيَّة[٥] ■

---

(١) Kotze, Dirk, Op. Cit., 84.

(٢) Ndanga, Noyoo. (2000). «Ethnicity and Development... », Op. Cit., 58.

(٣) ينظر كتاب: «دراسات إفريقية عن الحركات الاجتماعية والديمقراطية»، في: القاسم، صالح محمود. النظام السياسي ومشكلة الجنوب في السودان.

(٤) Elaigwu, J.I. (2011), Topical Issues in Nigeria›s Political Development, Jos: Ala Publishing House. Pp. 102, 103.

(٥) Aquiline, Tarimo S.J. "Politicization of Ethnic Identities and the Common Good in Kenya", http://www.scu.edu/ethics/practicing/focusareas/global_ethics/kenya.htm/ Accessed: 7 Dec, 2015.